

تعريف عام
بأهل السنة والجماعة

كتبه
سعيد فودة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مذهب أهل السنة والجماعة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفضل
الأنبياء والمرسلين، وبعد
فهذه نظرات في التعريف بأهل السنة على سبيل الإجمال، وإشارة
إلى وجودهم تاريخياً ومكانتهم بين المسلمين إجمالاً.

تمهيد:

اشتهر عند العلماء أن أهل السنة والجماعة هم من سار على نهج
النبي ﷺ وأصحابه الكرام عليهم رضوان الله تعالى، ولم ينحرفوا بابتداع
ولا بهوى.

وجاءت نسبتهم إلى السنة إشارة إلى حفاظهم عليها، وعملهم بها،
تحقيقاً لكونها وحياً من عند الله تعالى، ولكونها صادرة عن رسول الله
صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى، وفي مقابل مَنْ شَكَّكَ في
الأخذِ بها وفي اعتبارها مصدراً مِنْ مصادِرِ التشريع، كبَعْضِ المبتدعة
الذين رفضوا العمل بها مع القرآن، وَمَنْ وافقوهم في هذا الرَّعْمِ من
المعاصرين سواء كانوا من العلمانيين أو منحرفي الأفهام. وكذلك في مقابل
من أنكر كثيراً من السنة لا بصورة صريحة، لكن بشكل ضمني،
كالشيعة الذين رفضوا كثيراً من روايات أهل السنة لرفضهم كثيراً من

رجال أهل السنة، فآل ذلك الموقف منهم إلى رفض كثير من السنة، وإنكار كثير مما كان واقعاً من الأحداث والأحكام عند السلف.

وأما نسبتهم إلى الجماعة، فالمقصود منهم إجمالاً جماعة الحق، وقصدًا أولاً صحابة النبي عليه الصلاة والسلام، وذلك أنّ أهل السنة أعظم الفرق الإسلامية التي حفظت لهم مقامهم العظيم من الإسلام، فلم يقدحوا في أكابره كما فعل الخوارج، والشيعة، ولم يتهاونوا في اتباع اجتهاداتهم والاستفادة منها كما وقع فيه غيرهم.

ثم صار اسم أهل السنة والجماعة علمًا مخصوصًا بهم، وإن زعم غيرهم أنه عامل بما جاء عن النبي ﷺ أو موقر لأصحابه عليه السلام. وقد اشتهر عند العلماء أن اسم أهل السنة يندرج فيه أكثر العلماء في مختلف العلوم الدينية والدينية، وكذلك يندرج فيهم أكثر الملوك والسلاطين، ومعهم أكثر دول الإسلام في الشرق والغرب مما لا قدرة لنا على ذكره في هذا المقام، وأكثر الملوك في أقاصي البلاد كانوا على طريقة أهل السنة والجماعة إلى زمان نهاية دولة الإسلام بإزالة الخلافة العثمانية، ثم صار الأمر بعد ذلك يحتاج تفصيلاً خاصاً إلى زماننا هذا. وكذلك يندرج فيهم أكثر العوام على مرّ السنين، بحيث إن إحصاءهم وعدهم عدداً يعتبر من قبيل المحال.

ومن أعظم من قام بهذا الأمر العظيم -على مذهب أهل السنة والجماعة- من الدفاع عنه والترويج لمفاهيمه وردّاً على خصومه هم الأشاعرة والماتريدية.

فالأشاعرة أتباع الإمام أبي الحسن الأشعري (ت ٣٢٤هـ)، والماتريدية أتباع الإمام أبي منصور الماتريدي (ت ٣٣٣هـ).

ويدخل في ذلك من وافقهم وإن لم ينتسب إليهم فيعد منهم حكماً. فهذان الإمامان هما إماما أهل السنة اللذان قعدا القواعد واهتما بأبلغ الاهتمام بنصرة طريقتهم والرد على خصومهم، والذب عن موافقهم على مدار التاريخ، وهما الإمامان اللذان أسسا مدرستين متوافقتين في الأصول وأكثر الفروع، وإن لم يعرف عن واحد منهما أنه تلاقى مع الآخر، بل كانا في بلدين بعيدين عن بعضهما، ولكن توافقهما الذي عرفه العلماء من بعد معرفتهم بنتاج هذين الإمامين، كان دليلاً على صواب نظرهما، واتباعهما قواعد الأئمة العظام، وسيهما على الطريق النظريّ الصحيح. ولذلك اتبعهم أكثر العلماء من بعد، وانتسبوا إليهما عن رضى ومعرفة وعلم بمحقيقة آرائهما وما قرراه في كتبهم. ولم يكن اتباع الأعلام العلماء لهذين الإمامين تقليداً، ولا محاباة ولا مواطأة لهما لمجرد المحبة، ولا بأثر من عوامل سياسية محضّة، كما يحلو لكثير من المغرضين والمخالفين والعلمانيين والملحدّين في هذا الزمان أن يزعموا، حرصاً على تنفير الناس.

تعريف موجز بالمذهب الأشعري

أولاً: مؤسسه

هو الإمام أبو الحسن الأشعري (٢٦٠-٣٢٤هـ)، وإليه ينسب أهل السنة والجماعة، حتى لُقّبوا بالأشاعرة. قال الإمام المحقق ابن السبكي في ترجمة الإمام أبي الحسن الأشعري:

"عليّ ابن إسماعيل بن أبي بشر واسمه إسحاق ابن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن بلال بن أبي بردة ابن صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي موسى عبد الله بن قيس. شيخنا وقدوتنا إلى الله تعالى الشيخ أبو الحسن الأشعري البصريّ شيخ طريقة أهل السنة والجماعة، وإمام المتكلمين، وناصر سنة سيّد المرسلين والدّابّ عن الدين، والسّاعي في حفظ عقائد المسلمين، سعيّاً يبقى أثره إلى يوم يقوم النّاس لربّ العالمين. وإمام حبر، وتقّي برّ، حمى جناب التّشريع من الحديث المفترى، وقام في نصره ملّة الإسلام فنصرها نصراً مؤزّراً:

بهمة في الثريا إثر أخصها وعزيمة ليس من عادتها السأم

وما برح يُدلج ويسير، وينهض بساعد التّشمير، حتى نقى الصّدور من الشّبه، كما ينقى الثّوب الأبيض من الدّنس، وقال فلم يترك مقالاً لقائل، وأزاح الأباطيل، والحقّ يدفع ترّهات الباطل. ولد الشّيخ سنة ستين ومائتين^(١).

(١) انظر طبقات الشافعية الكبرى (٣/٣٤٧) وما بعدها.

ثم ذكر الإمام ابن السبكي أنّ الإمام الأشعري كان في بداية أمره قد أخذ عن أبي عليّ الجبائي، وتبعه في الاعتزال. وقد شكك القاضي عياض في هذا الأمر فقال: "ويروى أنّه كان في بداية أمره معتزلياً ثمّ رجع إلى هذا المذهب؛ أي إلى مذهب أهل السنة كما وضّحه هو، وهذا إن صحّ لا ينقصه، فقد كان من هو أفضل منه كافراً، ثمّ أسلم، بل هذا أدلّ على ثبات قدمه وصحّة يقينه في التزام السنّة، إذ لم يلتزمها لأتّه نشأ عليها، ولا اعتقدها إلّا بما نور الله له بها من قلبه وأيده بروحه ورشده، وتكفّفه من عنايته ونصره، فذكر أبو عبد الله الأزديّ أنّه كان أولاً معتزلياً أخذ عن الشحام والعطويّ، وتقدّم في ذلك على نظائره، ثمّ رجع إلى الحقّ، ومذهب أهل السنّة، فكثير المتعجب منه^(١)". اهـ.

ولم يبتدع الإمام الأشعريّ مذهبه ابتداءً، بل كان عمله كما قلنا عبارة عن شرح وتدعيم لأقوال أهل السنة.

قال القاضي عياض في ترجمته: "وصنّف لأهل السنة التصانيف، وأقام الحجج على إثبات السنة، وما نفاه أهل البدع من صفات الله تعالى ورؤيته وقدم كلامه وقدرته وأمور السمع الواردة من الصراط والميزان والشفاعة والحوض وفتنة القبر مما نفت المعتزلة وغير ذلك من مذاهب أهل السنة والحديث، فأقام الحجج الواضحة عليها من الكتاب والسنة والدلائل الواضحة العقلية، ودفع شبه المبتدعة ومن بعدهم من الملحدة والرافضة، وصنف في ذلك التصانيف المبسوطة التي نفع الله بها الأمة، وناظر المعتزلة، وكان يقصدهم بنفسه للمناظرة، وكلم في ذلك، فقيّل له: كيف تخالط أهل البدع وقد أمرت بهجرهم - وكان أمرهم في ذلك الوقت

(١) ترتيب المدارك في أعلام مذهب الإمام مالك (٢٧/٥).

شائعاً وكلمتهم غالبية- فقال: هُم أهل الرياسة، وفيهم الوالي والقاضي، فهم لرياستهم لا ينزلون إليّ، فإن لم نَسِرْ إليهم فكيف يظهر الحقُ ويعلم أن لأهله ناصرًا بالحجة^(١)؟

..... فلما كثرت تواليفه وانتفع بقوله، وظهر لأهل الحديث والفقهاء ذبّه عن السنن والدين، تعلق بكتبه أهل السنّة وأخذوا عنه ودرسوا عليه وتفقهوا في طريقه، وكثر طلبته وأتباعه لتعلم تلك الطرق في الذبّ عن السنّة، وبسط الحجج والأدلة في نصر الملة، فسَمَوْا باسمه، وتلاهّم أتباعهم وطلبتهم فعرفوا بذلك، وإنما كانوا يُعرفون قبل ذلك بالمشيئة، سمة عرفتهم بها المعتزلة، إذ أثبتوا من السنّة والشرع ما نفوه.

فهذه السّمة أولاً كان يعرف أئمة الذب عن السنّة من أهل الحديث كالمحاسبي وابن كُلاب وعبد العزيز بن عبد الملك المكيّ والكرابيسيّ، إلى أن جاء أبو الحسن وأشهر نفسه فنُسب طلبته والمتفقهة عليه في علمه بنسبه، كما نُسب أصحاب الشافعي إلى نسبه، وأصحاب مالك وأبي حنيفة وغيرهم من الأئمة إلى أسماء أئمتهم الذين درسوا كتبهم وتفقهوا بطرقهم في الشريعة، وهم لم يُحدِثوا فيها ما ليس منها. فكذلك أبو الحسن.

فأهل المشرق والمغرب بحججه يحتجون وعلى منهاجه يذهبون، وقد أثنى عليه خلق كثير منهم، وأثنوا على مذهبه وطريقه.

.... ونظراً أهل الحديث راضون عنه مقتبسون منه، وقد درس عليه وعلى أصحابه منهم جماعة حتى صاروا أئمة في طريقه وصنفوا الكتب على نهج طريقته وتصانيفه^(٢).

(١) وهذه كلمة حقيقة أن تكتب بماء الذهب لتكون نبراساً وعبرة وقاعدة للعاملين.

(٢) ترتيب المدارك، (٥/٢٤).

وقال الإمام تاج الدين السبكي:

"اعلم أن أبا الحسن لم يبدع رأياً، ولم يُنشِ مذهباً، وإنما هو مُقرّرٌ لمذاهب السلف، مناضل عما كانت عليه أصحاب رسول ﷺ، فالانتساب إليه إنما هو باعتبار أنه عقد على طريق السلف نطاقاً، وتمسك به وأقام الحجج والبراهين عليه، فصار المقتدي به في ذلك السالك سبيله في الدلائل يسمى أشعرياً، ولقد قلت مرة للشيخ الإمام رحمه الله - يقصد والده الإمام المجتهد تقي الدين السبكي - : أنا أعجب من الحافظ ابن عساكر في عدّه طوائف من أتباع الشيخ، ولم يذكر إلا نزراً يسيراً، وعدداً قليلاً، ولو وقي الاستيعاب حقّه لاستوعب غالب علماء المذاهب الأربعة، فإنهم برأي أبي الحسن يدينون الله تعالى، فقال: إنما ذكر من اشتهر بالمناضلة عن أبي الحسن، وإلا فالأمر على ما ذكرت من أن غالب علماء المذاهب معه.

وقد ذكر الشيخ شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام أن عقيدته اجتمع عليها الشافعية والمالكية والحنفية وفضلاء الحنابلة، ووافقه على ذلك من أهل عصره شيخ المالكية في زمانه أبو عمرو بن الحاجب، وشيخ الحنفية جمال الدين الحصري^(١).

وقال في موضع آخر:

" قال المأثور: ولم يكن أبو الحسن أول متكلم بلسان أهل السنة إنما جرى على سنن غيره، وعلى نصره مذهب معروف، فزاد المذهب حجة وبياناً ولم يبتدع مقالة اخترعها ولا مذهباً انفرد به، ألا ترى أن مذهب أهل المدينة نسب إلى مالك، ومن كان على مذهب أهل المدينة

(١) طبقات الشافعية الكبرى (٣/٣٦٥).

يقال له مالكي، ومالك إنما جرى على سنن من كان قبله وكان كثير الاتباع لهم، إلا أنه لما زاد المذهب بياناً ووسطاً عزي إليه، كذلك أبو الحسن الأشعري، لا فرق، ليس له في مذهب السلف أكثر من بسطه وشرحه وتواليفه في نصرته.

إلى أن يقول القاسبي: وما أبو الحسن إلا واحداً من جملة القائمين في نصره الحق، ما سمعنا من أهل الإنصاف من يؤخره عن رتبة ذلك، ولا من يؤثر عليه في عصره غيره، ومن بعده من أهل الحق سلكوا سبيله.

إلى أن قال: لقد مات الأشعري يوم مات، وأهل السنة باكون عليه، وأهل البدع مستريحون منه^(١).

ما يقال عن تراجعه عن الأشعرية:

والتحقيق أن كتابته لكتاب الإبانة كان في أوائل رجوعه من المعتزلة كما ذكره الإمام الكوثري، وليس من أواخر مصنفاته، وكان يخاطب به بعض الحنابلة الظاهرية يريد بذلك إرشادهم إلى المذهب الحق، وإرجاعهم عن ظاهريتهم التي قد تؤول بهم إلى التشبيه. على أن ما بين أيدينا من النسخ من هذا الكتاب كلها قد تلاعبت بها الأيدي، حتى لم يعد بالإمكان الثقة بها، وفي الكتاب شواهد على نفي التجسيم والتحديد والأعضاء والأركان، وفيه استدلالات ضعيفة أيضاً يبعد أن تكون صدرت من الإمام الأشعري.

(١) طبقات الشافعية الكبرى (٣/٣٦٧)

فيكون الإمام بعد تراجعته عن الاعتزال قد أقام على مذهب أهل الحق يقيمه ويبني أركانه وينظر المخالفين، وما يزعم من ردوعه إلى مذهب المشبهة مجرد كلام لا دليل عليه.

وها هي كتبه التي بقيت بين أيدينا، تشهد بأنه لم يكن يميل إلى تجسيم ولا تشبيه، خصوصا كتاب اللمع ومذاهب الإسلاميين، وما نقله عنه الأكابر من العلوم والمعارف يؤكد ذلك، ومن ذلك الكتاب الذي لخص فيه ابن فورك معارف الإمام الأشعري (مجرد مقالات الأشعري) اعتمد فيه على كتبه التي كانت بين يدي ابن فورك، وجمع بين أقواله وكلماته المفرقة عن أصول معتمدة، وهو كتاب معتمد يرجع إليه أكابر العلماء من الموافقين والمخالفين للأشعري، وكله تنزيه ومعارف تدل على علو كعب هذا الإمام، فلا يلتفت إلى ما يزعمه بعض الناس مما يناقض ذلك.

من أبرز تلامذة الأشعري:

١- أبو عبد الله بن مجاهد، وعليه درس الإمام الباقلاني أبو بكر محمد بن الطيب. قال ابن عساكر: وله كتب حسان في الأصول وذكر لنا غير واحد من شيوخنا عنه إنه كان حسن السيرة حسن التدين جميل الطريقة.

٢- أبو الحسن الباهلي: كان القاضي أبو بكر بن الباقلاني رحمه الله قال كنت أنا والأستاذ أبو إسحق الأسفرايني والأستاذ ابن فورك رحمهما الله معا في درس الشيخ أبي الحسن الباهلي، تلميذ الشيخ أبي الحسن الأشعري.

قال القاضي أبو بكر كان الشيخ الباهلي يدرس لنا في كل جمعة مرة واحدة، وكان منا في حجاب يرخي الستر بيننا وبينه كي لا نراه، قال: وكان من شدة اشتغاله بالله تعالى مثلَ والهِ أو مجنون، لم يكن يعرف مبلغ درسنا حتى نُذكِّره ذلك.

قال: وكنا نسأل عن سبب النقاب وإرسال الحجاب بينه وبين هؤلاء الثلاثة كاحتجابه عن الكل فأجاب إنكم ترون السوقة وهم أهل الغفلة فتروني بالعين التي ترونهم.

وكان الأستاذ أبا إسحق رحمه الله يقول: كنت في جنب الشيخ أبي الحسن الباهلي كقطرة في البحر وسمعت الشيخ أبا الحسن الباهلي قال: كنت أنا في جنب الشيخ الأشعري كقطرة في جنب البحر".

٣- ومنهم أبو الحسين بندار بن الحسين بن محمد بن المهلب الشيرازي الصوفي خادم أبي الحسن رحمه الله . وكان بندار من أصحاب الشبلي.

وكان من أهل شيراز سكن أرجان.

وكان عالماً بالأصول، له اللسان المشهور في علم الحقيقة، كان الشبلي يكرمه ويقدمه.

وبينه وبين محمد بن خفيف مفاوضات في مسائل رد علي محمد بن خفيف في مسألة الإيمان وغيرها، حين ردَّ محمد بن خفيف على أقاويل المشايخ (الصوفية)، فصوب بندار أقاويل المشايخ وردَّ عليه ما ردَّ عليهم. توفي بندار سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة، وغسله أبو زرعة الطبري.

٤- ومنهم أبو سهل الصعلوكي النيسابوري رحمه الله. توفي سنة تسع وستين وثلاثمائة، وكان فقيهاً أديباً شاعراً متكلماً صوفياً كاتباً وعنه أخذ ابنه أبو الطيب وفقهاء نيسابور.

٥- ومنهم أبو زيد محمد بن أحمد المرزوي رحمه الله. ذكر أبو بكر بن فورك أنه ممن استفاد من أبي الحسن الأشعري من أهل خراسان. مات بمرو في رجب سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة. وكان حافظاً للمذهب حسن النظر مشهوراً بالزهد. وعنه أخذ أبو بكر القفال المرزوي وفقهاء مرو.

٦- ومنهم أبو عبد الله بن خفيف الشيرازي الصوفي رحمه الله. صحب رويماً والجريري وأبا العباس بن عطاء، ولقي الحسين بن منصور وهو من أعلم المشايخ، كان بعلوم الظاهر متمسكاً بعلوم الشريعة من الكتاب والسنة، وهو فقيه على مذهب الشافعي.

٧- ومنهم أبو بكر الجرجاني المعروف بالاسماعيلي رحمه الله. توفي يوم السبت غرة رجب سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة وكان له أربع وتسعون سنة. وله تخريج على كتاب محمد بن إسماعيل البخاري.

مات سنة نيف وسبعين وثلاثمائة وجمع بين الفقه والحديث ورياسة الدين والدنيا، وصنف الصحيح وأخذ عنه ابنه أبو سعد وفقهاء جرجان. وقال القاضي الإمام أبو الطيب الطبري رحمه الله: دخلت جرجان قاصداً إليه وهو حي فمات قبل أن ألقاه.

جمع بين الأصول والفقه والحديث، وصنف صحيحاً على شرط البخاري يدلُّ على فضل كثير لمن وقف عليه.

٨- ومنهم أبو الحسن عبد العزيز بن محمد بن اسحق الطبري المعروف بالدمل رحمه الله . كان من أعيان أصحاب أبي الحسن وممن تخرج به وخرج إلى الشام ونشر بها مذهبه.
وكتب عن أبي جعفر محمد بن جرير الطبري كتابه في التفسير وسمعه منه.

وله قديما على تأليف في الأصول يدل على فضل كثير وعلم غزير سماه (كتاب رياضة المبتدي وبصيرة المستهدي).

٩- ومنهم أبو الحسن علي بن محمد بن مهدي الطبري . صحب أبا الحسن رحمه الله بالبصرة مدة، وأخذ عنه وتخرج به واقتبس منه وصنف تصانيف عدة تدل على علم واسع وفضل بارع، وهو الذي ألف الكتاب المشهور في تأويل الأحاديث المشكلات الواردة في الصفات.

١٠- ومنهم أبو جعفر السلمى البغدادى النقاش رحمه الله. وذكر ابن عساكر أن الأزهري سئل عن أبي جعفر النقاش فقال ثقة. قال: وكان أحد المتكلمين على مذهب الأشعري، ومنه تعلم أبو علي بن شاذان الكلام. ولد أبو جعفر النقاش للنصف من حمادي الأولى سنة أربع وتسعين ومائتين. وتوفي سنة تسع وسبعين وثلاثمائة يوم الأحد أو الإثنين، لست خلون من المحرم وكان ثقة.

١١- ومنهم أبو عبد الله الأصبهاني المعروف بالشافعي . وهو: محمد بن القاسم أبو عبد الله الشافعي متكلم على مذهب أهل السنة، ينتحل مذهب أبي الحسن الأشعري. عاد إلى أصبهان سنة ثلاث وخمسين وثلاثمائة وتوفي بها في ربيع الأول يوم الجمعة لاثنتي عشرة خلت منه سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة.

سمع الكثير بالعراق كثير المصنفات في الأصول والفقه والأحكام.
١٢- ومنهم أبو محمد القرشي الزهري رحمه الله . قال ابن عساكر:
قال عبد الواحد بن أحمد ابن القاسم بن محمد بن عبد الرحمن الزهري أبو
محمد المذكور من ولد عبد الرحمن بن عوف وهو ابن أبي الفضل المتكلم
الأشعري، سمع أبا حامد ابن بلال، وأبا بكر القطان وأقرانهما، وسمع
معنا الكثير، وكان يصوم الدهر ويختم القرآن في كل يومين.
توفي الزهري رحمه الله بنيسابور، غداة الخميس الثامن عشر من
شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة.

١٣- ومنهم أبو بكر البخاري المعروف بالأودني الفقيه رحمه الله .
وهو: محمد بن عبد الله بن محمد الفقيه أبو بكر البخاري ثم الأودني
إمام الشافعيين بما وراء النهر في عصره بلا مدافعة.
قدم نيسابور سنة خمس وستين وحبج ثم انصرف فأقام عندنا مدة
في سنة ست وستين.

وكان من أزهد الفقهاء وأورعهم، وأكثرهم اجتهادا في العبادة
وأبكاهم على تقصيره وأشدهم تواضعا وإخباتا وإنابة.
وتوفي الفقيه أبو بكر الأودني رحمه الله ببخارى سنة خمس
وثمانين وثلاثمائة.

١٤- ومنهم أبو منصور بن حمشاد النيسابوري رحمه الله . وهو: محمد
بن عبد الله بن حمشاد أبو منصور الأديب الزاهد من العباد العلماء
المجتهدين.

درس الأدب على أبي عمر الزردي وأبي حامد الخارزنجي وأبي عمر
الزاهد وأقرانهم، والفقه بخراسان على أبي الوليد، وبالعراق على أبي علي بن

أبي هريرة، والكلام على أبي سهل الخليطي، والمعاني على أبي بكر بن عبدوس. ونظرائه وسمع بخراسان أبا حامد بن بلال البزاز وأبا بكر محمد بن الحسين القطان وأقرانهما وبالعراق على الصفار وأبا جعفر الرزاز وأقرانهما وبالجزاز أبا سعيد بن الأعرابي وأقرانه ودخل اليمن فأدرك بها الأسانيد العالية.

وكان من المجتهدين في العبادة الزاهدين في الدنيا تجنب مخالطة السلاطين وأولياءهم إلى أن خرج من دار الدنيا وهو ملازم لمسجده ومدرسته قد اقتصر من بقية أوقاف لسلفه عليه على قوت يوم بيوم تخرج به جماعة من العلماء الواعظين.

وظهر له من مصنفاته أكثر من ثلاثمائة كتاب مصنف.

توفي رحمه الله وقت الصبح يوم الجمعة الرابع والعشرين من رجب سنة ثمان وثلاثمائة، وكان مولده سنة عشرة وثلاثمائة، فمات وهو ابن اثنتين وسبعين سنة.

١٥- ومنهم الشيخ أبو الحسين بن سمعون البغدادي المذكر رحمه الله. كنيته أبو الحسين من مشايخ البغداديين له لسان عال في هذه العلوم يعني علوم أهل التصوف، لا ينتمي إلى أستاذ، وهو لسان الوقت والمرجوع إليه في آداب الظاهر، يذهب إلى أسد المذاهب، وهو إمام المتكلمين على هذا اللسان في الوقت.

توفي سنة سبع وثمانين وثلاثمائة.

١٦- ومنهم أبو عبد الرحمن الشروطي الجرجاني. كان متكلماً على مذهب السنة وعالماً بالشروط وبالطب، وكتب الحديث عن أبي يعقوب النحوي ومن في طبقاته توفي سنة تسع وثمانين وثلاثمائة.

١٧- ومنهم أبو علي الفقيه السرخسي رحمه الله . زاهر بن أحمد بن محمد بن عيسى السرخسي أبو علي المقري الفقيه المحدث شيخ عصره بخراسان. وانصرف إلى نيسابور سنة ثمان وثلاثين وثلاثمائة والمشايخ متوافرون، فأقام سنة يحضر مجالس المشايخ، وجرت له مناظرة إذ ذاك في مجلس الإمام أبي بكر أحمد بن اسحق وغيره.

وقد كان قرأ القرآن على أبي بكر بن مجاهد وتفقه عند أبي اسحق المرزوي ودرس الأدب على أبي بكر بن الأنباري ومحمد بن يحيى الصولي وأقرانها.

توفي يوم الأربعاء سلخ ربيع الآخر من سنة تسع وثمانين وثلاثمائة، وهو ابن ست وتسعين سنة.

من أبرز أئمة المذهب

ظهر في المذهب الأشعري علماء جهابذة في كل العلوم والفنون العقلية والنقلية، واستقصاء ذكرهم والإحاطة بهم لا يمكن هنا، ولكن نذكر بعض أهم أعلامهم:

١- القاضي أبو بكر الباقلاني (٣٢٨-٤٠٣هـ) (٩٥٠-١٠١٣م)، وهو محمد بن الطيب، من كبار علماء الأشاعرة، هذب أصول المذهب، ورد على الخصوم، وأيده بالحجج، وله مناظرات مع أهل الأديان الأخرى، وتآليف رائعة عظيمة النفع، منها: الانتصار للقرآن، تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، الإنصاف، مناقب الأئمة، إعجاز القرآن، وغيرها كثير.

٢- أبو إسحق الإسفراييني (٤١٨هـ/١٠٢٧م)، هو إبراهيم بن محمد، كان عالماً بالفقه والأصول، له كتاب الجامع في أصول الدين والرد على الملحدين.

٣- إمام الحرمين أبو المعالي الجويني (٤١٩-٤٧٨هـ/١٠٢٨-١٠٨٥م)، هو عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني، الفقيه الشافعي الشهير، الذي يعول عليه أكثر أصحاب الشافعي في كتبهم، كان يدرس ويعلم في نيسابور، وتعرض لفتنة اخترعها المجسمة مع الشيعة والمعتزلة، اضطر على إثرها أن يخرج من نيسابور، وجاور في مكة والمدينة، وبقي في مكة أربع سنوات، يدرس ويدافع عن الأشعرية من غير مدافع يقف أمامه، حتى رجع الأمر إلى الصواب فرجع إلى نيسابور بعدما أعاد الوزير نظام الملك الأمور إلى نصابها. له كتبٌ في مختلف العلوم، تعتبر من أعظم ما ألف فيها، منها: البرهان في أصول الفقه، وهو أحد أربعة كتب تعتبر أعظم كتب الأصول، وكتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة، والشامل في أصول الدين، في علم التوحيد والكلام، والنظامية في الأركان الإسلامية، وصلنا منها قسم العقيدة، وقد ألفها للوزير نظام الملك، وله كتاب نهاية المطلب في دراية المذهب، في فقه الشافعي يعد من أعظم ما ألف في المذهب الشافعي، وعليه مدار كتب الشافعية من بعده.

٤- أبو إسحق الشيرازي (٣٩٣-٤٧٦هـ) (١٠٠٣-١٠٨٣م)، هو إبراهيم بن علي بن يوسف الفيروزآبازي الشيرازي، العالم المناظر، كان فقيهاً مجيداً، كان حسن المجالسة، طلق الوجه، فصيحاً، مناظراً. من مصنفاته: التنبيه في أصول الفقه وشرحه، المهذب في الفقه، التبصرة في أصول الشافعية، المعونة في الجدل.

٥- أبو حامد الغزالي (٤٥٠-٥٠٥ هـ) (١٠٥٨-١١١١ م)، وهو محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي، حجة الإسلام، وقد كان تلميذا للإمام الجويني، وشهرته تغني عن الكلام عنه، من كتبه: إحياء علوم الدين، والاقتصاد في الاعتقاد، والمستصفى في أصول الفقه، ومجموعة كبيرة من الرسائل في مختلف العلوم والمعارف، وله كتاب تهافت الفلاسفة، وفضائح الباطنية، وغيرها كثير.

٦- الإمام فخر الدين الرازي (٥٤٤-٦٠٦ هـ) (١١٥٠-١٢١٠ م)، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الطبرستاني، وهو من أعلم الناس بالكلام والفلسفة والمنطق، ردّ على الفلاسفة والمخالفين من أهل الملل والنحل، وله مناظرات كثيرة، وترك مؤلفات ما زال يعتمد عليها في العلوم، منها التفسير الكبير الذي لم يؤلف مثله في باب، وعليه اعتمد كثير من المفسرين المتأخرين، ومنها كتاب المحصول في أصول الفقه، من أعظم ما ألف في أصول الفقه، والأربعين في أصول الدين، ومعالم أصول الدين، ونهاية العقول في دراية الأصول، والمحصّل في أصول الدين، كلها في علم التوحيد، وله كتب غيرها تركناها خوف الإطالة.

أعلام آخرون: ومن أعلام الأمة في علم التوحيد ابن فورك والقشيري والبيضاوي وابن الحاجب والعضد الإيجي والتفتازاني والسيد الشريف، ومنهم أعلام بلاد المغرب مثل الإمام السجلماسي وابن التلمساني وأبي عثمان العقباني. ومن أهل المشرق ومصر ابن الحاجب والإمام العز بن عبد السلام، والشيخ زكريا الأنصاري وتلامذته وقد ملأوا الدنيا، وإمام الدنيا الإمام الرازي وطلابه كالكتابي والأبهري وأتباع مدرسته وهم كثيرون منتشرون في الآفاق، والإمام سيف الدين الآمدي،

وابن دقيق العيد، وشهاب الدين القرافي، والتقي السبكي والتاج السبكي، والأصفهاني، ومن الأعلام المشهورين مثل الإمام السنوسي صاحب العقائد الشهيرة، والإمام اللقاني صاحب جوهرة التوحيد، وشراحهما، وهم كثيرون، فضلاء مدققون كجلال الدين الدواني صاحب الشرح الشهير على العقائد العضدية، والخيالي عبد الحكيم والعصام والفرهاري أصحاب الحواشي والشروح الشهيرة على شرح العقائد النسفية. والبدر الزركشي والسيوطي، والبيجوري والدسوقي.

ثانياً: ترجمة موجزة للإمام الماتريدي

الإمام أبو منصور الماتريدي، توفي سنة ٣٣٣هـ، وماتريد نسبة إلى قرية من قرى سمرقند في بلاد ما وراء نهر جيحون، ويلقب بـ(عَلَم الهدى) لجهوده في الدفاع عن أهل السنة. أخذ العلم عن:

-أبي بكر أحمد ابن إسحاق الجوزجاني، وهو تلميذ لأبي يوسف محمد بن الحسن الشيباني.

-وأبي نصر أحمد العياضي، ونصير بن يحيى وهو أحد رواة كتاب الفقه الأكبر والفقه الأبسط لأبي حنيفة النعمان.

-ومحمد بن مقاتل قاضي الري، وهو أحد شيوخ الجوزجاني السابق. وقد قال العلامة مصطلح الدين القسطلاني الكستلي(٩٠٢هـ) في حاشيته على شرح العقائد النسفية ص١٧: "المشهور من أهل السنة في ديار خراسان والعراق والشام وأكثر الأقطار هم الأشاعرة، أصحاب أبي الحسن علي بن إسماعيل بن سالم بن عبد الله بن بلال أبي بردة بن أبي موسى الأشعري صاحب رسول الله عليه السلام، أول مَنْ خالف أبا علي الجبائي ورجع عن مذهبه إلى السنة، أي طريق النبي عليه السلام، والجماعة، أي طريقة الصحابة، وفي ديار ما وراء النهر الماتريدية أصحاب أبي منصور الماتريدية تلميذ أبي نصر العياضي تلميذ أبي بكر الجرجاني صاحب أبي سليمان الجرجاني تلميذ محمد بن الحسن الشيباني من أصحاب الإمام أبي حنيفة".

ومن تلامذة الماتريدي:

أبو القاسم إسحاق بن محمد السمرقندي (ت ٣٤٠هـ)، والإمام أبو الليث البخاري، والإمام أبو محمد عبد الكريم بن موسى البزدوي جد محمد بن محمد بن الحسين بن عبد الكريم البزدوي مؤلف كتاب أصول الدين.

ومن أعلام المذهب الماتريدي:

١- القاضي أبو اليسر البزدوي (٤١٢-٤٧٨هـ). صاحب كتاب أصول الدين.

٢- أبو المعين النسفي (ت ٥٠٢هـ). وهو مؤلف كتاب تبصرة الأدلة.

٣- نجم الدين أبو حفص عمر بن محمد (ت ٥٣٧هـ) وهو صاحب عقائد النسفي، أخذه من كتاب تبصرة الأدلة.

ومنهم: الإمام ابن الهمام، والسمرقندي صاحب الصحائف، وخضر بك صاحب النونية الشهيرة التي لخص فيها مقاصد شرح السعد على النسفية، والإمام نور الدين الصابوني صاحب كتاب الكفاية في الهداية، والبداية في علم الكلام معاصر الرازي. والعلامة البياضي صاحب كتاب إشارات المرام من عبارات الإمام.

واتصلت جهود أهل الحق في الدنيا شرقاً وغرباً حتى أيامنا هذه، فمن الأعلام الذين أثروا بأعمالهم في هذا المجال الشيخ مصطفى صبري والإمام محمد زاهد الكوثري اللذين كان لهم أثر عظيم في المشتغلين بعلم التوحيد وغيره من العلوم في هذا العصر، لا تزال نتعطر بذكرهم ونستفيد من عبق طيبهم. وتلامذتهم منتشرون في البلاد، مفيدون ومستفيدين عاملين حاملين هذه الوظيفة العالية على أكتافهم، حافظين إياها في

أرواحهم. ومنهم الشيخ محمد بجيت المطيعي، مع ما له من بعض تفردات،
والشيخ يوسف الدّجوي، وكثير من الشيوخ الذين كانوا في القرن الهجري
الماضي حتى هذا العصر الذي نحن فيه..

ثالثاً: خلاصة عقائد الأشاعرة والماتريدية (أهل السنة والجماعة)

يمكن تلخيص أهم معاهد العقائد عند أهل السنة على النحو الآتي:

إنهم يؤمنون بأنَّ الله تعالى واحد لا إله غيره، وأنه منزَّه عن الجسمية ومشابهة الحوادث، وأن صفاته الوجودية كلّها قديمة، فإنه لا يتصف بصفة وجودية حادثه، ولذلك فإنهم يقومون بتأويل كل خبر أوهم خلاف ذلك أو تفويضه، ولا يحملون المعاني على ما هو ثابتٌ للبشر لتأدية ذلك إلى المحذور من تشبيهٍ أو تمثيلٍ، وكلُّ صفاته كمالات لا نقص فيها بوجه من الوجوه، وأنه لا يتصف بالصفات الحادثة القائمة بذاته، ولا يكتسب من خلقه للخلق كمال، فهو بصفاته بعدهم كما كان قبلهم.

وأنه متكلم بكلام نفسيٍّ قديم غير حادث، وأنه يراه المؤمنون من خلقه يوم القيامة، بلا حيزٍ ولا حدٍّ ولا جهة له في نفسه، كما يعلمونه منزهاً عن ذلك، وأنه تعالى متصف بالقدرة المطلقة، وأنه فعال لما يريد، لا يفعل بالعلة ولا بالطبيعة.

وأن الله تعالى خالق أفعال العباد وموجدُها من العدم إلى الوجود، وأنهم مكتسبوها غير مجبورين عليها، بل مختارون لها مكلفون ببناء على هذا الكسب القائم بهم.

وأن العالم حادثٌ لأنه من فعل الله تعالى فعله بإرادته واختياره، وأنَّ الله تعالى اختار أن ينزل رسالاته إلى البشر، وليس ذلك واجباً عليه. وأن الأنبياء صادقون لا يكذبون على الله تعالى، مؤيِّدون بالمعجزات الدالة على صدقهم فيما يبلغون عن الله تعالى، وأنهم أمناء على الشريعة، لا يخونون الله تعالى بقول ولا فعل.

وأن الله تعالى يثيب ويعاقب بإرادته، ليس ذلك بواجب عليه، بل كل أفعال الله تعالى بإرادته واختياره ليس شيء منها بواجب عليه جل شأنه.

وأنَّ اليوم الآخر حقٌّ، والبعث وجميع ما أخبر به النبي الصادق المصدوق ﷺ حقٌّ، وأن جميع البشر بعد ظهور بعثة النبي مكلفون باتباع شريعته، وهذا من تمام كونه خاتم النبوة.

وأنَّ الأصل في أحوال القيامة التصديق بها على ظاهر ما أخبر به النبي ﷺ إذا لا موجب لتأويلها.

ولا يكفر أهل السنة أحداً من أهل القبلة بذنوب، ولا يخرجون أحداً من الإيمان إلا بنقض ما أدخله فيه، وكان من آخر ما روي عن الأشعري: اشهدوا علي أني لا أكفر أحداً من أهل القبلة.

مناهجهم في العقائد:

أسباب العلم عند الإنسان الحسّ أو الخبر الصادق أو العقل السليم. والعقائد، إما أن يستدل عليها بعقل أو نقل، فالأصول منها التي تتوقف عليها المعجزة، إثبات وجود الله تعالى، لا يستدل عليه استدلالاً إثبات على المنكر إلا بالعقل، ثم يؤتى بالأدلة النقلية لإثبات صدق ما توصل إليه العقل، وما سوى ذلك يجوز الاستدلال عليه بالنقل لا محالة.

فلا تعارض مطلقاً بين العقل والنقل القطعيين، وإن حصل تعارض بين ظاهر وقاطع، فالمعتمد هو القاطع مطلقاً، وأما الظاهر المظنون فيؤول إن أمكن. ولا يقدمون العقل على النقل، إذ مفهوم ذلك إبطال النقل، وهم يحيلون ذلك. والتقديم فرع التعارض، ولا تعارض فلا ترجيح إلا مع الظنيّ.

ولا يثبت الأشاعرة حكماً شرعياً إلا بالنقل، إذ لا حاكم إلا الله تعالى، وهذا الأصل مما تميز الأشاعرة بالبناء عليه، والتفريع، والدفاع عنه فلم يخصصوه بشيء دون شيء. وبناء على ذلك فإنهم يقولون إنه لا يكلف أحدٌ بأمر تكليفاً شرعياً يترتب عليه العقاب، إلا إذا وصلته الشريعة على وجهها ، وقامت عليه الحجة، وكان متمكناً من النظر والتأمل فيها.

وأما الماتريدية من أهل السنة فمع قولهم بأن الحاكم هو الله تعالى إلا أنهم قالوا يمكن معرفة بعض أحكام الله تعالى بالعقل بالدلائل الظاهرة التي أقامها الله تعالى على أحكامه وإن لم يرسل الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام. ومن هذه الأحكام وجود معرفة الله تعالى ومعرفة بعض صفاته.

فقد اتفق الفريقان على أن المعارف يمكن أن تكون بالعقل أو بالنقل، وأما الأحكام فلا تكون إلا بالنقل، وقد يكون العقل كاشفاً عن بعضها لا مثبتاً لها، كما عند الماتريدية.

ومما مضى يعرف أن هناك أصلاً وطيداً من أصول أهل السنة وهو أن الله تعالى مكّن البشر من الاستدلال بالعقل على بعض أصول العقيدة كوجود الله تعالى وبعض صفاته جل شأنه، وبعض ما ينبغي للأنبياء عليهم الصلاة والسلام وبعض أحكام البعض. وأن ما انتشر في الزمان المعاصر من أنّ العقل لا علاقة له بالدين من حيث إمكان التأسيس المعرفي فهو باطل عند أهل السنة. وقد زعم كثير من الحداثيين والعلمانيين أن الدين لا يُؤسّس على العقل، وزعموا أن الدين مناقض للعقل، وتوسلوا بهذه المزاعم لخلخلة أركان العقيدة في نفوس الناس.

وما يعرف من إيجاب أهل السنة المعرفة على المكلفين، فهذا ليس تعجيزاً لهم كما يعتقد بعض القاصرين، بل هو حصٌّ للناس على رفع مستوى العلم والثقافة لديهم، ولأن هذا أهم سبب للحفاظ على الدين في نفوسهم، ولذلك فإن من أوجب الواجبات عند أهل الحق تعليم الناس وبيان الدين وأسس العلوم والمعارف لهم.

أساس قسمة أهل السنة إلى ثلاثة طوائف:

يقسم بعض العلماء أهل السنة من جهة العقائد إلى ثلاث طوائف:

الطائفة الأولى: أهل الحديث

الطائفة الثانية: أهل النظر العقلي.

الطائفة الثالثة: أهل الوجدان والكشف والتصوف.

وممن اعتمد هذا التقسيم الإمام البكي صاحب كتاب تحرير المطالب لما تضمنته عقيدة ابن الحاجب، وتابعه فيه الإمام الزبيدي في كتاب شرح إحياء علوم الدين وغيرهما.

ولا يخفى أنّ مورد قسمة أهل السنة إلى هذه الطوائف الثلاثة إنما هو راجع إلى طريقة تقرير العقيدة للناس ولأنفسهم يغلبون فيها الاحتجاج بالحديث أو العقل أو الكشف والوجدان، لا إلى أصل أخذهم للعقائد فإن هذا مشترك بينهم وهو النقل والشرع.

وهذا يعني: أن الجميع من أهل السنة يأخذون بالكتاب والسنة والعقل، ولكن بعضهم يركز في تثبيته للعقائد على النصوص الشرعية من الكتاب والسنة، وهؤلاء نحو الإمام البيهقي وغيره، وهؤلاء لا يغفلون

العقل ولا النظر العقلي، ولكن أكثر معتمدهم على المنقول، وهؤلاء يسمون بأهل الحديث.

ومن أهل السنة من يركز أكثر على الأدلة العقلية والبراهين النظرية، كالإمام الرازي والغزالي والتفتازاني وغيرهم من العلماء، وهؤلاء لا يُقال إنهم يُغفلون الأخذ بالكتاب والسنة، ولا يُقال إنهم يتهاونون بها، ولكنهم وجهوا أنظارهم إلى تحقيق الأدلة النظرية. وهؤلاء يكملون ما بدأتها الطائفة الأولى، ويُسمون بأهل الكلام والنظر.

وطائفة من أهل السنة يركزون أكثر على المعاملة مع الخالق والخلق، ومع أنهم يرجعون في الاعتقاد إلى طريقة أهل الحديث والنظر ويبنون عليها، ولكنهم يتميزون ببيان نتائج العقائد الدينية على روح الإنسان، ويحاولون بيان ما يشعرون به في جنانهم باللسان وتربية الخلق على السلوك للترقي في هذه الدرجات والمراتب الروحية، ومنهم أبو القاسم الجنيد والحارث المحاسبي وغيرهم، ويحاولون إرشاد الإنسان إلى الطرق العملية التي تساعد على تثبيت العقائد المأخوذة بالطرق السابقة. وهؤلاء يسمون بالصوفية أو أهل الذوق.

فالحاصل أن جميع هذه الطوائف عقائدهم واحدة، ولكن مسالكهم في تقرير العقيدة وتوضيحها متنوعة.

ويُلاحظ أن كل واحدة من هذه الطوائف لا تنكر مأخذ غيرها، ولكن كل واحدة تتميز بزيادة اعتمادها على نوع من الأدلة، فهو تنوع تابع لتغاير طرق الاستدلال ومسالك التقرير، وليس تابعا لتغاير المستدلّ عليه.

فإنَّ عقائد الجميع واحدة، ولا يجوز أن يعتقد المحدثُ خلاف ما يعتقد به المتكلم، ولا يخالف الصوفيُّ المتكلم، لا ظاهراً ولا باطناً.

بل الجميع ملَّتْهم واحدة، وعقيدتهم واحدة، وهم على قلب رجل واحد.

واختلاف طرقهم لاختلاف طبائع الناس، فمن الناس من يميل بطبيعته إلى الذوق ومنهم من يميل إلى النظر، ومنهم من يميل إلى النقل بمجردة. وكل منهم ممدوح ليس بمقدوح، ولا اعتراض على واحد منهم.

ولا يخفى أن بعض الذين انتموا إلى الإسلام وانتسبوا إلى المحدثين والسلف في بعض العصور المتقدمة وعصرنا الحالي قد انحرفوا عن الصراط الحقِّ، كما انحرف كثير ممن لم ينتسب إليهم، فمالوا إلى التجسيم وغيره من البدع، ولا شكَّ أن بعض من انتمى إلى الإسلام وانتمى إلى أهل النظر والكلام، قد قال ببعض ضلالات الفلاسفة وغيرهم، وأن من انتمى إلى الصوفية قد قال ببعض ضلالات الباطنية، ولكن وجود هؤلاء المنحرفين لا يصح أن يستلزم عند أهل الإنصاف ذمَّ أصل الطريقة.

ويستدعي من ذوي العقل إعادة النقد والنظر والإصلاح كلما لاحظوا انحرافاً أو بدعةً.

الخلافات بين الماتريدية والأشاعرة:

كتب كثيرون في الخلاف بين الماتريدية والأشاعرة، وحاصل الكلام فيها هنا أن الخلاف معنوي أو لفظي، والمعنوي إما أصلي أو فرعي، والخلافات بينهما تقع:

- إما في المعنوي الفرعي: كمسألة إيجاب الإيمان بالعقل الكاشف عن حكم الله تعالى، ومسألة التكوين، أو مسألة حقيقة الإيمان.

-أو في اللفظي وما يقرب منه: كمسألة السعيد والشقي، ومسألة الاستثناء في الإيمان، وهي خلافات غير مؤثرة وقد يختار فيها بعض الأشاعرة قول الماتريدية والعكس صحيح.

وليس بينهم نزاع في معنويّ أصلي بفضل الله تعالى، قال الكستلي ص ١٧: "والمحققون من الفريقين لا ينسب أحدهما الآخر إلى البدعة والضلالة".

رابعاً: وظيفة أهل السنة وشمول علومهم

معارف أهل السنة تشمل العلوم جميعاً، أقصد العلوم الأصلية والفرعية والآلية، ولا يتسع المجال لذكر فضائلهم وثمراتهم في هذه العلوم جميعاً. ولكن المقصود أن نبين أنهم لا يقتصرون على فنّ دون غيره، ولا على علم ويتركون سواه، لأنهم يعلمون أن العلوم تتكاتف وتتآلف، ويؤيد بعضها بعض، ويتفرع بعضها عن بعض.

وحاصل معارفهم الأصلية نجملها فيما يأتي:

١- علم التوحيد هو علم أصول الدين:

وهو الذي يتكفل بالإجابة عن أهمّ الأسئلة الأصلية التي يعانيتها جنس البشر، ويؤيد أجوبته بالأدلة العقلية والنقلية الكافية الكفيلة ببعث الطمأنينة في القلوب الزكية.

وهو العلم الذي يتمّ فيه الجواب عن تأسيس الدين في قلوب العباد، والردّ على الشبه الطارئة والقديمة. وتنقيح كلام الملل والأديان في كل ما يتعلق بالدين من قريب أو بعيد.

ولذلك فقد شملت بحوثهم أكثر معارف البشر، من الطبيعيات والرياضيات والفلسفة والأديان، والمنقول والمعقول.

وهذا العلم أهم العلوم على الإطلاق، ومنه تستمد سائر العلوم مبادئها، وتتأيد به قواعدها، وتركن إليه نتائجها. وفيه بيان المبدأ والمعاد، فهو علم يخدم حقيقة الإنسان، بمعرفة خالقه والاعتقاد بكماله، لا حكم إلا لله. منه المبدأ وإليه المعاد.

٢- علوم الفقه والشريعة والأحكام:

تقوم هذه العلوم والمعارف على البحث في أحكام أفعال البشر الجزئية العملية والعلمية، فبعد التأسيس المعرفي لاعتقادهم في علم الكلام كما سبق، لا بد من معرفة حكمها الشرعي، وبهذا العلم تتأيد الأخلاق الزكية، وترتاح النفوس العلية، ويسود العدل بين البشر، فما أنزل الله تعالى هذا الدين إلا لما فيه مصلحة الخلق، ولا يستفيد الله تعالى منه ذرة، ولا يتأيد ملكه بما يفعله البشر، كفروا كلهم أو آمنوا. ويتكفل الفقه بالبحث عن أحكام الجوارح الظاهرة والباطنة، فهو فقه كيفية العمل الظاهر والباطن.

المذاهب الفقهية الكبرى

للفقه سلسلة تنتهي إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام أخذ علماء أهل السنة أصولها كبراً عن كابر عن التابعين والتابعون أخذوها عن الصحابة والصحابة علمهم أعظم معلم وهو رسول الله عليه الصلاة والسلام.

وأهم المذاهب الإسلامية المعتبرة المذاهب الأربعة المذهب الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي، وما تزال منتشرة في بلاد الإسلام حتى يومنا هذا، وقد أسسها الفقهاء الأربعة:

الإمام الأول: النعمان بن ثابت بن زُوَطي، ولد سنة ٨٠هـ، وتوفي سنة ١٥٠هـ، وحدث أبو حنيفة عن عطاء بن أبي رباح، ونافع مولى بن عمر، وقتادة، وحماد بن أبي سليمان الذي لازمه ثماني عشرة سنة، وعنه أخذ

الفقه عن إبراهيم النخعي عن علقمة النخعي، والأسود بن يزيد عن ابن مسعود.

وممن أخذ عن أبي حنيفة: أبو يوسف القاضي، ومحمد بن الحسن الشيباني، والحسن بن زياد، وغيرهم، وروى عنه وكيع بن الجراح، وابن المبارك وغيرهم.

الإمام الثاني: مالك بن أنس بن أبي عامر الأصبحي، ولد سنة ثلاث وتسعين، وتوفي في سنة ١٧٩هـ أخذ عن نافع مولى ابن عمر، وابن شهاب الزهري، وشيخه في الفقه ربيعة بن عبد الرحمن المعروف بريعة الرأي. وروى عنه ابن شهاب الزهري، وربيعة الرأي فقيه أهل المدينة، وسفيان الثوري، والليث بن سعد، والأوزاعي، وسفيان بن عيينة. وممن روى عنه تلميذه الشافعي إمام الشافعية، وابن المبارك، ومحمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة.

الإمام الثالث: هو أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي الملقب، ولد بغزة سنة ١٥٠هـ، وتوفي سنة بمصر في سنة ٢٠٤هـ، تعلم لما استظهر القرآن خرج إلى البادية عند قبيلة هذيل الشهيرة بالفصاحة، وحفظ شعرهم، ولزم بعد ذلك مسلم بن خالد الزنجي مفتي مكة، وتفقه به حتى أذن له بالإفتاء وهو ابن خمس عشرة سنة، ثم رحل إلى مالك ولازمه وأخذ عنه الموطأ، رحل إلى العراق والتقى بمحمد بن الحسن الشيباني تلميذ أبي حنيفة، واطلع

على كتب فقهاء العراق، ثم رجع إلى مكة يستفيد من علمائها، وعاد مرة أخرى إلى العراق في سنة ١٩٥هـ، وصنف كتابه القديم المسمى بالحجة، ويرويه عنه أربعة من كبار أصحابه العراقيين وهم أحمد بن حنبل، وأبو ثور، والزعفراني، والكرائسي، وأتقنهم رواية له الزعفراني، ومكث في العراق سنتين. ثم ارتحل إلى مصر وظهر مذهبه الجديد الذي جمع في كتاب الأم، وأكثر أسباب تغيير مذهبه ما رآه من عادات وحالات تخالف ما كان رآه في العراق والحجاز، فتغير وجه اجتهاد في بعض المسائل.

ومن أشهر تلاميذه: إسماعيل بن يحيى المزني، أبو إبراهيم، والبويطي وهو أبو يعقوب يوسف بن يحيى، وهو الذي خلف الإمام الشافعي في حلقة ونشر مذهبه، وكان أخذ عن عبد الله بن وهب أيضاً.

الإمام الرابع: أحمد بن حنبل الشيباني، أبو عبد الله، ولد ببغداد سنة ١٦٤هـ، وتوفي في بغداد سنة ٢٤٠هـ له رحلات في طلب العلم، وقد أخذ عن إبراهيم بن سعد، وسفيان بن عيينة، وتفقه على الشافعي لما جاء ببغداد، وتميز بالحديث وقوة الحافظة، وحوى مسنده أكثر من أربعين ألف حديث، وكان يعتمد على الرواية جداً، ويتحرج أن يتجاوز في الفتوى نصوص الشرع أو ما ورد عن الصحابة، وقلما تراه ينزع إلى القياس.

وهؤلاء الأئمة الأربعة هم أصحاب المذاهب المعتمدة في أنحاء العالم الإسلامي، وأقوالهم مأخوذ بها بلا ضير ولا ترقب، ومن عداهم لا بدّ من

مراجعة أقواله واعتبارها من أهل الاعتبار والاجتهاد، وإعادة تنقيحها قبل القبول والعمل.

٣- السلوك والتصوف:

علم التصوف في حقيقته عملٌ بالعلوم السابقة، التي تؤسس أحكامه، وتضبط قواعده. وبالسلوك في هذا الطريق ينكشف للإنسان ثمرات الإيمان علماً وعملاً، وهي أحوال يسميها الصوفية معارف أو علوماً، ولا يتميز الصوفية الملتزمون بمذهب أهل الحق عن غيرهم من أهل السنة بعقيدة خاصة، ولا بفقهِ خاصٍّ، بل يتميزون بالعمل والإخلاص لله تعالى، والإخلاص في بواطنهم وظواهرهم له جلَّ شأنه. وذلك بعد إحكام ما يجب في حقهم من المعارف السابقة. فلا يتحقق تصوف معتبر في الخارج إلا بعد إحكام العلوم السابقة والإذعان لها ظاهراً وباطناً، فلا يوجد عند صوفية أهل السنة عقيدة ظاهرة وعقيدة باطنة، بل الظاهر كالباطن، والكمال في العمل والتحقق روحياً وعلمياً.

ومن أعظم الصوفية المجمع على إمامتهم الإمام الجنيد وأعلام الرسالة القشيرية التي يصح أن تتخذ منهاجاً للصوفية في كل العصور، خصوصاً بعدما قام شيخ الإسلام زكرياء بشرحها وتوجيه كلام الصوفية المنقول في ثناياها وتقريره على وفاق مذاهب أهل الحق.

فصار الحاصل:

أنَّ علم التوحيد يبحث في عليية العمل، وتأسيس ذلك على إثبات وجود الله تعالى، وإرسال الرسل وإثبات النبوات، وحقية خاتم الرسالات. وعلم الفقه يبحث في كيفية العمل الجزئي المبني على تلك الأصول العقائدية الكلية.

والتصوف والسلوك هدفه الوصول إلى الغاية التي جعل الدين لها في هذه الدنيا وفي الآخرة، وذلك يجعل الإنسان عاملاً بحيث يصير متأهلاً لأن ينعم عليه الله تعالى من فيوضاته ومدده، فيزيد من حقيقته وعلو شأنه، ويتخلص من شوائب الأهواء التي تدفع به إلى الحضيض في دنياه وآخرته.

خامساً: جهود أهل السنة في التاريخ الإسلامي

قام أهل السنة بجليل الوظائف في تاريخ المسلمين، في العلم والعمل جميعاً.

فأهم العلوم كما مرّ كانت من إنتاجهم، وأهم الدول التي حافظت على بيضة الإسلام ونفوذه كانت دولهم، وما انكسر شأن المسلمين إلا في العصور التي انخفضت فيها رايتهم. وأعمال الصحابة والتابعين في فتوح البلدان ومن تبعهم من دول الأمويين في الشرق والغرب، والعباسيين ومن تبعهم من السلاجقة والأيوبيين والمماليك والعثمانيين، وكذلك الدول التي قامت في المغرب كدولة بني أمية في الأندلس والمرابطين والموحدين في بلاد المغرب، ودول بلاد الهند وبلاد ما وراء النهر، كل هذه الدول التي قاومت أعداء الدين ووقفت في وجه أعداء المسلمين من التتار والمغول والصليبيين والفرنجة على اختلاف ألوانهم وأشكالهم، وأوقفوا الفرق الزائغة عن التخريب في بلاد المسلمين كمقاومتهم لدولة الفاطميين والقرامطة وغيرهم مما قامت في الشرق والغرب، نقول كل هذا الدول كانت على طريقة أهل السنة والجماعة.

وأكثر حركات التحرير من استعمار الغربيين والحركات الجهادية في مقاومة الاستعمار كانت ذات عقيدة سنية.

ولكن أحوال الزمان انقلبت وتغيرهم، وانكسرت شوكة أهل السنة في عصورنا هذه إلى حد كبير، حتى صارت الفرق الشاذة هي المذكورة في هذا الزمان، وانخفضت راية أهل السنة وذلك لتكالب الدول عليهم، واشتداد الأمر وتكالب الظلمات عليهم، والكلام في هذا الشأن يحتاج إلى محل خاص.

وكذلك قام أهل السنة بالرد على المخالفين للدين من أهل الأديان
والمتفلسفة والمنحرفين من الفرق الإسلامية، والمنتسبين إليه من الباطنية
والملاحدة، وجهودهم غير خافية على أحد من الناس.

سادساً: ما ينتظرهم في هذا العصر

إن الناظر في تاريخ أهل السنة يعلم تماما عظم الواجب الذي ينتظرهم في هذا الزمان، فنحن نعتقد أنه لن تقوم للمسلمين قائمة إلا بعد عودة علوم ومعارف أهل السنة، وانتشارها بين الخلق، فهي الكفيلة بتمثيل الإسلام على وجه صحيح، وهي الحقيقة بالدفاع عنه حق الدفاع. ونحن لا نغمط لأحد من المسلمين حقاً، ولا ننكر جهداً، وغاية الأمر أن كل الناس عاملون بحسب ما يعتقدون أنه الصواب لهم. ونحن قد رسخ علم اليقين في نفوسنا بأن نهضة المسلمين لن تكون إلا بعودة معارف أهل السنة والجماعة وترسيخ قواعدهم في المباحث العلمية. والمخالفون لأهل السنة والجماعة في هذا الزمان:

أولاً: الملاحدة من العلمانيين والحدائثيين الذين يقدحون في أصل الأديان، ويبطلون التكاليف الشرعية، ويقدحون في نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، ويبطلون فائدة الأديان في هذا الزمان، زاعمين أن جنس الإنسان قد ارتفع شأنه بعدما مرَّ بمراحل تاريخية معينة فلم يعد بحاجة إلى مرشد يرشده، فالحاجة إلى الإله المزعوم في نظرهم قد بطلت، وبعضهم يصرح بإنكار الإله، وبعضهم يلوح، وبعضهم يقول بملء فيه: لا حاجة لنا إلى البحث أصلاً في هذه المسألة، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، كلمة حق أريد بها باطل.

ثانياً: الأديان المحرّفة المخالفة للإسلام كالنصرانية (المسيحية) واليهودية. وغيرهما من الأديان الوضعية والمختلقة لمآرب وأهداف معلومة.

رثالثا: الفرق الباطنية كالبهائية والإسماعيلية وأصحاب التأويلات الباطنية المنتسبين إلى الإسلام عن غواية وضلال، لمآرب يقصدونها.

رابعا: المخالفون لأهل السنة من الفرق الإسلامية الأخرى، سواء كانت راسخة في الإسلام كالمجسمة وفروع هذا المذهب من الكرامية قديماً، والتيمية حديثاً، ومن ينتسب إليهم ويتأثر بهم من المسلمين. ومن الفرق الأخرى التي لا تكف عند حدّ في القدح بعلوم أهل السنة كالشيعة المتربصة بأهل السنة والجماعة كل تربص. وغيرهم من الفرق الإسلامية الأخرى التي تتراوح في عدائها لأهل السنة ومجاهرتهم أو إسرارهم لذلك.

خامسا: الجهلة من العوام ورعاع الخلق الذين يتأثرون بكل ناعق، ويميلون إلى كلّ مميل وزاعق.

ولا ريب أن طريقة تعامل أهل السنة مع كل طائفة من هذه الطوائف ينبغي أن تكون ملائمة لها، فلا يصح أن نعامل أهل الفرق الإسلامية كتعاملنا مع الملاحدة والمنحرفين عن أصول الدين، أو الطاعنين في قواعد الإسلام ونبوة نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم. ولا يصح أن نتعامل مع الفرق التي تبني على أنظار قوية كتعامل مع الفرق الظاهرة العوار.

ولكن الضابط الأكيد مع الجميع ينبغي أن يكون العمل بقواعد القرآن من الجدال والتي هي أحسن، بما يفضي إلى تقريب الخلق إلى الدين لا تنفيرهم وتبعيدهم عنه. فإن هدف أهل السنة الذي نشأوا عنه

ويرجعون إليه هو بيان الدين والدفاع عنه لتقريبه إلى قلوب البشر
وترغيبهم به.

خاتمة : وصف عام لحال أهل السنة والجماعة في هذا الزمان

من المعلوم أنه لا حياة للدين في نفوس الناس إلا بوجود العلماء العاملين المشهود لهم بعلمهم وتقواهم، فالعلماء هم حراس الدين، وبزوالهم يتخطف الدين أعداؤه من كل جانب، وإذا كان العلماء فاسدين فسد الناس، وإذا تولى بعض من يدعي العلم أمور الفتوى، فإذا كان ضالاً فاسداً أو خرعاً لا شخصية له ولا نفوذ، ويسهل التلبيس عليه، فإنه يترتب على ذلك أنه يمكن التلبيس على عامة الناس بواسطة هذا العالم. والمسلمون منذ أقدم الأزمنة لا يقتدون إلا بالعلماء ولا يستجيبون للحكام إلا إذا رضي عنهم العلماء والحوادث في التاريخ شاهدة بصحة ما أقول.

وقد كان حال الناس على ذلك منذ زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان الناس متفقين في سالف الأزمان على إمامة العلماء والفقهاء الأربعة وكل من تبعهم.

وبقي الناس ملتفين حول العلماء ما دام العلماء عاملين يرشدون الناس ويعلمونهم، حتى إذا ضُعفت العلاقة بين الناس والعلماء في العصور المتأخرة من الدولة العثمانية، وما تبعها فيما يُسمّى بعصر الاستقلال من الاستعمار، ازداد جهل الناس بدينهم لتقصير من العلماء. لقد علم الكفار علماً قاطعاً أنهم لا يستطيعون أن يسيطروا على الأمة الإسلامية، إلا إذا أبعدوا الناس عن دينهم، وأكبر الطرق المساعدة على ذلك هي تجهيل الناس بأمور دينهم.

وعلموا أنهم لا يمكنهم أن يصرحوا بمنع الناس عن دينهم بصورة صريحة، لأن هذا يُؤلِّدُ ردّة فعل نحو الدين نفسه فيخسرون ولا ينفذ ما يريدون.

فعملوا على التخطيط في السير في طريق أخرى، وهي إيهام الناس أن الفهم الصحيح للدين ليس على ما يتوهمونه بل على صورة أخرى يريدون أن يكون الدين عليها ، فأخذوا من الدين بعض الفروع، ونشروا بعض آراء المسلمين الفاسدة، وجعلوا جهدهم منصباً لعدم نشر الصالح منها، ولكن بقدر محدود أيضاً لئلا يتنبه إلى ذلك الألباء.

لقد كان الناس حتى نهاية الدولة العثمانية أو قبل انتهائها بفترة مُتَلَقِّينَ أمورَ دينهم من العلماء المنتسبين إلى أهل السنة ومن أهل المذاهب الأربعة. وكان لا يتكلم في أمور الدين إلا العالم فيها، وكان للعلماء هيبه، ولا نزع كمال الأمر في ذلك، إلا أنهم كانوا جملة على الطريق المستقيم ولم يكونوا ضالين ولا متقصدين لإضلال الخلق بتركهم على جهلهم. فكانت ثقة الناس بهم موجودة، وحاجتهم إليهم عظيمة في الحياة الخاصة والعامة.

وقد عمل الأعداء لهذا الدين في هذا المجال على تقليل تعلق الناس بعلمائهم تدريجياً، وقد تعرضت معاهد العلوم الكبرى (كالأزهر الشريف والقرويين والزيتونة وغيرها) في العالم الإسلام إلى هجمات شديدة خصوصاً خلال القرنين الماضيين وحتى هذا العصر الذي نعيش فيه، وتعرضت إلى ضغوط سياسية وفكرية داخلية وخارجية أدت في كثير من الأحيان إلى زعزعة كثير من الأركان التي كانت سبباً في قوة تأثير هذه المراكز في المسلمين عبر التاريخ.

وبعض الهجمات والتشكيكات كانت من أناس مخالفين لأصول الدين الإسلامي، يريدون تغيير كثير من أصوله ويجدون أن التشكيك في الأصول التعليمية في المعاهد الكبرى سيكون طريقاً إلى ذلك.

وبعض الهجمات نشأت -وما زالت- على أيدي فِرَقٍ من المنتمين إلى الإسلام، عرَفَتْ أنها لن تقدر على نشر أفكارها المنحرفة المخالفة لأهل السنة والجماعة، إلا بالهجوم على التعاليم والآراء الدينية العلمية والعملية الراسخة في هذه المعاهد، والسعي لترويج بعض الآراء والمذاهب الباطلة بين الخلق.

وهذا وغيره من أسباب وضغوط عظيمة على علماء الإسلام، لا مجال هنا لذكرها، أدى إلى أفول نجم مراكز تعليم العلم الشرعي العظمى، مما أدى إلى ترسيخ أسباب كافية للجوء الناس إلى أسس تعليمية أخرى ومراكز بديلة مختلفة في الطريقة والأهداف عن هذه الأصول، فكان أن ظهر البديل الأجنبي للعلوم الإسلامية وللمدارس الإسلامية، وللأفكار الإسلامية، وللطريقة الأقوى لتعليم العلوم الإسلامية، وهذه هو المدارس والجامعات المنتشرة في مختلف بقاع العالم الإسلامي. وظهرت بعض الجامعات في البلاد العربية تابعة لمذاهب منحرفة استطاعت الترويج لنفسها بين طلاب العلم بالترغيب والترهيب، فنشرت مبادئ غير قويمة وآراء منحرفة عن الحق في أكثر من مسألة ومبحث من المباحث العقديّة المهمة.

ومع ظهور ذلك، انخفض فهم الناس للعلم الشرعي، وبذا قل ارتباطهم بالدين نفسه وبأهل الدين الذين هم أهله، لأنه لا تدين بغير علم كما هو مقرر عند العلماء، وفي الوقت نفسه صارت الألقاب تتبدل

فبعد أن كان المشايخ هم الذين يعلمون الناس، وبعد أن كان الحفاظ والمفسرون والفقهاء والأصوليون والمتكلمون هم قادة الناس، وانمحت أو كادت أن تمحي طريقة المشايخ التقليدية في تعليم العلوم الشرعية التي ترسخها وتوصلها كما ينبغي في نفوس طلاب العلم، وظهرت بدائل لها تجري على أسس غربية، تأخذ من أصول العلوم بأقل القليل مع خلط عظيم.

ولما كان المنهج في أكثر تلك الجامعات تلفيقياً كانت الأحكام الموجودة أيضاً ملفقة، أي ليست قائمة على أساس صحيح ومتين، مما أدى إلى ظهور التلفيق في تربية الناس على مقتضى الهداية الإسلامية، فظهرت جوانب الخلل الاجتماعية والسياسية والتربوية تبعاً لذلك.

صارت تتولد شكوك عظيمة في كون جماهير الناس على الصراط المستقيم من فهم الدين أصولاً وفروعاً. وصار النابتة يتكلمون في المسائل العظيمة.

حتى لقد رأيت والله من لم يمض على التزامه بالدين إلا فترة قليلة، ولم يتعلم بين يدي شيخ متقن ولا هو ممن يفهمون كيف يقرؤون الكتب ويستفيدون الأحكام منها، ومع ذلك جعل يتكلم في أمور دقيقة في مسائل العقائد تتعلق بالنبوات والكرامات، وهو يوهم من يراه أنه العالم المتمكن، وما درى المسكين في أي بحر يخوض، والجلوس جعلوا ينادونه بالشيخ على عادة الناس، حتى تكلمتُ وبينت لهم تهافت كلامه ونبهته إلى خطورة هذه المواضيع ومدى خطأ من يخوض فيها من دون علم.

وهذا هو شأن كثير المنتمين للدين، وهم لا يتورعون عن وصف بعض العلماء ممن حصل الاتفاق بين الناس أنهم مهتدون، يصفونهم

بالابتداع والضلال ويخرجونهم من أهل السنة والجماعة ويشككون في عقيدتهم وسلامة طويتهم كما انتشر التشكيك في إمام الأئمة الإمام أبي حنيفة النعمان على السنة مشايخ ينتمون إلى بعض الفرق الإسلامية المنحرفة.

ونعود إلى ما كنا فيه فنقول:

عندما كان البساط يسحب من تحت علماء المذاهب المعتمدة، كان يجثو عليه ويعتليه أناس آخرون.

وكان هؤلاء في نفس الوقت يتسلمون قيادة الجماهير المسلمة، ويتحكمون بأعناقهم وأفكارهم وعقولهم.

وبيان هذا:

أن الناس لكي يبتعدوا عن دينهم كان لا بد أن يمرروا في مراحل حتى يحدث الانتقال غير مفاجئ لأحد، بل كي يحدث كأنه جزء من الدين. فأول الخطوات: كانت ذم المذاهب الفقهية: تحت صورة ذم التقليد، وتشجيع الاجتهاد وتسهيله أي إيجاء أنه سهل ميسور لكل أحد، وتشويه صورة الفقهاء الأعلام وتصويرهم متبعين لأهوائهم، وتصويرهم كأنهم لا يهتمون إلا بالمسائل الغريبة التي لا نفع منها في الحياة الدنيا والآخرة، ويحكون للناس أنهم يؤولون الأحاديث مهما كانت صريحة لتوافق رأيي إمامهم وإن خالف صريح الكتاب والسنة!

حتى برز بعض الصعاليك الذين يقولون نحن رجال وهم رجال. وليسوا إلا صبية حمقى لم يجدوا لهم شيئاً يضيعون به وقتهم إلا الهجوم على علم الشريعة بأساليبهم الفاسدة، وآرائهم الكاسدة، فلا تكاد تجد فيهم موفقاً صاحب عقل سليم؛ وكثير منهم جهلة معاندون للحق.

أقول:

هجم هؤلاء على علوم الشريعة، بل على النصوص الشرعية، يفهمونها بأذواقهم السقيمة، وجعلوا يشتغلون بعلم الحديث وهو أصعب العلوم الشرعية، لا يكاد يبرز فيه إلا من تداركه الله بتوفيقه وبالغ عنايته، وجعلوا يقولون: مَنْ الأفضل، أَنْ نأخذ من فم الرسول -عليه الصلاة والسلام- مباشرة أم من أبي حنيفة والشافعي ومالك وأحمد وغيرهم من الفقهاء؟

فلا يكاد أحدٌ يغفل عن تناقض هذا السؤال، وسخافته، حتى يقول لهم: بل الأفضل قطعاً هو الأخذ من الرسول صلى الله عليه وسلم. وينسى أن هؤلاء الفقهاء الأعلام ما كان أخذهم إلا من القرآن والسنة، وأنه ليس كلُّ أحدٍ يجوز أن يتصدى لاستنباط حكم الله في هذا الأمر، بل للاجتهاد شروط يجب على كل أحدٍ يخوض فيه أن يحصلها وإلا فلا عبرة بقوله وإن ملأ الدنيا صراخاً وعويلًا.

وهكذا صار يُعَدُّ من الإثم والخطأ العظيم أن ينتسب الواحدُ إلى الشافعي أو إلى أبي حنيفة، فيقولون له بل الانتساب إنما يكون إلى الإسلام لا إلى مذهب من المذاهب، موهمين إياه أن هذه المذاهب مخالفة للإسلام، وهي في الحقيقة تستمد من عين الشريعة.

فتركوا وراء ظهورهم كل هذه الكنوز الهائلة من كلام العلماء ولم يتقيدوا حتى بأسلوبهم ومنهجهم في الأخذ والتلقي، وقالوا إن هذا الطريق كافٍ ليوصلنا إلى النجاة.

وقد أمضى هؤلاء التعساء شطراً من أعمارهم يلثهون وراء أحكام انتهى منها الفقهاء منذ أقدم الأزمنة، مثل تحريك الأصبع في الصلاة،

ولبس الدشداشة، وترك ذؤابة على رأسه وغير هذا من مسائل هي من فروع الفروع، وجعلوا من دون وعي يقتلون الأمة ويمعنون فيها ذبحاً وتشريحاً، وهم يدركون أو لا يدركون.

وتركوا الأمة معهم حيارى لا يتمسكون بشيء، ولا يهتمون بأمر وشكوا عقلاءهم في نجاعة العلوم الإسلامية ونصاعة عقول علماء المسلمين ومعارفهم.

ولما برز هؤلاء في هذا العصر، وأرادوا بزعمهم إصلاح حال هذه الأمة بحسب أذواقهم ومعارفهم المختلطة، درجوا على اعتبار أن الأصل فيما هو موجود معروف من الأمور الدينية خطأً وانحرافاً، وشككوا الناس بمعارفهم الدينية التي تلقوها عن أعلام العلماء الراسخين، ورفضوا معه المنهج الذي اعتاد عليه الناس ومن أهم أصول هذا المنهج اتباع الفقهاء والعلماء المشهود لهم بالعلم من أهل السنة والجماعة، وعدم جواز الهجوم بالنقد على المعارف الدينية إلا للذي تحققت فيه الشروط المبيحة لذلك، فصار هؤلاء الحمقى يقدحون في كل أمر يعتاده الناس.

فإذا رأوا واحداً ينتمي إلى أحد الفقهاء الأربعة قالوا له: هذا تقليدٌ غير الرسول عليه السلام! وهذا اتباعٌ باطل.

وإذا رأوا الناس العوام لا يهتمون بالتدقيق في الأدلة لحسن ظنهم بالفقهاء العظام، ذمّوهم على ذلك! وطلبوا من كل واحدٍ أن يسأل من يذكر له حكماً شرعياً عن الدليل ولا يكتبني بأن ينسبه إلى عالم فقيه. وزعموا أن هذا الاجتهاد الواجب في حقهم!

وجعلوا دراسة علم الحديث أهم واجب في الدين، وتهافتوا على ذلك تهافتاً عجبياً، وغفلوا عن الأصول القرآنية والاجتهادية التي لا ينبغي أن

يظنّ أنها دخلية على المناهج الفقهية والأصلية عند المسلمين، حتى صرت ترى أدنى الناس عقلاً وعلماً يحتجّ بأنه يصحح ويضعف، ويستنبط من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم مباشرة بلا حاجة إلى وسائط، وهكذا أوقعوا الناس في إرتباك عظيم. وجعلوهم يشكون في كل ما يتعلق بالدين أنه من الدين. وقد يكون صحيحاً. بل غالب ما ردّوه، كان ردهم باطلاً، وغالب ما شددوا فيه كان تشديدهم سخفاً منهم، ودليلاً على قلة عقلهم.

وهكذا لما ابتدءوا برد ما عند الناس، صار من المحتم أن يوجدوا للناس بديلاً للمنهج الذي ردوه وللأحكام كذلك. فأوجدوا منهجاً ملفقاً وأحكاماً كاذبة كذلك وجعلوا يصرون على أن هذا هو الحق، كل هذا وأهل الحق غافلون عما يجري، أو كانوا واعين. ولكنهم كمن قلعت أظافره، وعميت عيناه، وصار أولئك المناكيد يتكلمون بألسنة جارحة في حق الناس وكثير من العلماء الأعلام، وجعلوا يلحقون تهمة الابتداع إلى كل من خالفهم، ولو في أمر من الأمور الاجتهادية في الفقه أو غيره، وربما لم يتوانوا عن تكفير بعض من خالفهم لأتته الأسباب. ونتج عن كل هذا نواتج سيئة العاقبة، فهؤلاء الجاهلون لما لم يكن لديهم من العقول ما يكفي للاستدلال على المذهب الحق، فقد كان ناتج قولهم عبارة عن خليط عجيب من التلفيق والتهافت الذي يضحك منه الصبيان.

وجعلوا يضيعون أوقاتهم وأوقات الناس في سبيل بحث مسائل لا ينبغي صب الاهتمام الكبير إليها وترك غيرها، وهؤلاء لم يستضيعوا أن يقعدوا من الناس مقعد العلماء، الذين يعلمون الناس المذهب الحق والطريق المستقيم، ولذا اكتفوا بإثارة بعض المسائل كما قلنا وتركوا الناس يشتغلون بها.

ولعدم وجود العلم الشرعي القوي بين غالب الناس، فقد اكتفى جل هؤلاء بترك الالتفات إليهم، ومن التفت فإن لم يكن عنده علم ولا تروي وقع فيما وقعوا هم فيه، وإلا اضطر إما لمهاجمتهم وبيان تهافت قولهم، فينسبون إلى الابتداع، أو يكتفي بمعرفته لنفسه، فلا يسلمه من بعض شرورهم. هذا هو حال عامة الناس.

وأما الفئة التي عندها نوع علم بالذي يجري، فهذه غالباً مجردة من وسائل التأثير وإيصال رأيها إلى الناس، لأن الدولة كما قلنا هي دولتهم، والأموال بأيديهم، وأما أهل الحق فقد جردوا من أسلحتهم منذ جرد الأزهر الشريف مما كان عليه.

وقد انتسب هؤلاء المناكيد إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، وما هم منه، ولكن اقتضت الضرورة التاريخية هذا الانتماء. فإنه لما كانت المذاهب الثلاث الباقية هي المنتشرة وكان مذهب الدولة العثمانية هو مذهب أبي حنيفة، وبلاد المغرب على مذهب مالك وبلاد الشام ومصر على مذهب الشافعي، ومعظم باكستان والهند ومليبار والصومال وأندونيسيا وبلاد ما وراء النهر والصين وأغلب بلاد العالم إما على مذهب أبي حنيفة مذهب الشافعي.

أما المذهب الحنبلي فلم يكن منتشرًا بين المسلمين، ولم يظهر إلا بعد ظهور المذهب الوهابي وتلك الدعوة المشبوهة، واتكأ هؤلاء الناس على المذهب الحنبلي سلاحاً في وجه المذاهب الأخرى، وبهذا يكونون قد ضربوا الإسلام ببعض. وظهر صيت الإمام أحمد بن حنبل كأنه إمام السنة الوحيد ولا إمام غيره، بل زعموا أنه الإمام الكامل في مقابل الأئمة الثلاث، الذين وقعوا في أخطاء نجا منها أحمد كما يدعي هؤلاء المساكين.

هذا بعض ما يتعلق بجانب من جوانب الانخداع التي وقع فيها الناس. وإن كثيراً منا لناس لتتهتز صورة الإسلام في نفسه نتيجة لاعتراضه على مواقف علماء يظنهم لا يسرون على النهج الصحيح، نتيجة لتغير المفاهيم الاعتقادات وتسلمهم المعارف المنسوبة للدين من غير أهلها.

وكم نحن بحاجة اليوم إلى إعادة الاعتبار لأهل السنة والجماعة، الجامعين لما تفرق من معارف الإسلام، وإلى نشر علومهم ومعارفهم وأذواقهم، فإن في هذا لعمر الحق نجاة الأمة في الدنيا والآخرة.
والله الموفق

فهرست

٢	مذهب أهل السنة والجماعة
٢	تمهيد:
٥	تعريف موجز بالمذهب الأشعري
٥	أولاً: مؤسسه
٩	ما يقال عن تراجع عن الأشعرية:
١٠	من أبرز تلامذة الأشعري:
١٦	من أبرز أئمة المذهب
٢٠	ثانياً: ترجمة موجزة للإمام الماتريدي
٢١	ومن تلامذة الماتريدي:
٢١	ومن أعلام المذهب الماتريدي:
٢٣	ثالثاً: خلاصة عقائد الأشاعرة والماتريدية (أهل السنة والجماعة)
٢٤	مناهجهم في العقائد:
٢٦	أساس قسمة أهل السنة إلى ثلاثة طوائف:
٢٨	الخلافات بين الماتريدية والأشاعرة:
٣٠	رابعاً: وظيفة أهل السنة وشمول علومهم
٣٠	وحاصل معارفهم الأصلية نجملها فيما يأتي:
٣٠	١- علم التوحيد هو علم أصول الدين:
٣٠	٢- علوم الفقه والشريعة والأحكام:
٣١	المذاهب الفقهية الكبرى
٣٤	٣- السلوك والتصوف:
٣٦	خامساً: جهود أهل السنة في التاريخ الإسلامي
٣٨	سادساً: ما ينتظرهم في هذا العصر
٤١	خاتمة: وصف عام لحال أهل السنة والجماعة في هذا الزمان